النص على أن الإبدال في أصوات الحروف الأعجمية التي لا يماثلها أصوات عربية لازم. ولو أن هذا المعنى يفهم من خلال كلام سيبويه السابق أيضاً وإن لم ينص عليه صراحة.

أما الخفاجي فلا يختلف بشيء عن سابقيه في هذا الموضوع فقد ذكر "أن العرب يبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجا وربما أبعدوا الإبدال في مثل هذه الحروف وهو لازم لئلا يدخل في كلامهم ما ليس منه"(6).

ونستنتج من أقوال اللغويين في إبدال الأصوات الأعجمية ما يأتي:

1 - إن إبدال الحروف التي لايوجد لها نظير في العربية واجب في الألفاظ المعربة.

2 - يبدل الحرف الأعجمي بآخر عربي أقرب من غيره إليه من حيث المخرج غالبا.

3 - لم يكن مراعاة القرب المخرجي مطرداً في كل الحروف، لأن العرب أجازوا الإبدال بين الأصوات المتباعدة المخارج.

4 - لم يلحظ اللغويون العرب في الإبدال التقارب في صفات الحروف ولعلهم قد غفلوا عن هذه الناحية وهذا ماسنناقشه فيما بعد.

وبناء على ما تقدم غيّر العرب الحروف التي بين "الجيم والكاف وربما جعلوه جيماً وربما جعلوه كافاً وربما جعلوه قافاً لقرب القاف من الكاف... وأبدلوا الحرف الذي بين الباء والفاء فاءً وربما أبدلوه باءً"(7) وهذا الشيء نفسه فعلوه في حروف (V، الڤاء) وغيرها.

أما التغيير الذي حدث في أصوات الحروف التي يوجد نظير لها في العربية فهو أمثال التغيير الذي حدث في حرف الشين في الكلمة الفارسية (دشت) التي تعني الصحراء إلى سين فعربوها إلى (دست)(8).أو في قلبهم الظاء طاء كما صرح بذلك الأصمعي في قوله إن "العرب تجعل الظاء طاء ألا تراهم قالوا ناظور أي ينظر"(9). إلى غير ذلك من الحروف الكثيرة التي غيرها العرب في أثناء التعريب.

وقد قسم بعض اللغويين الإبدال في الحروف عند التعريب إلى قسمين بعد ملاحظة إطراده أو عدمه. وهما:

1 - إبدال مطرد وهو الحاصل في الحروف التي لايوجد لها ما يماثلها في العربية فقد ذكر السيوطي أن "البدل المطرد هو في كل حرف ليس من حروفهم كقولهم كربج، الكاف فيه بدل من حرف بين الكاف والجيم فأبدلوا فيه الكاف، أو القاف نحو قربق، أو الجيم نحو جورب، وكذلك فرند هو بين الباء والفاء فمرة تبدل منها الباء ومرة تبدل منها الفاء"(10).

وإذا كان العرب القدماء قد جعلوا إبدال الحروف الأعجمية مطرداً عند التعريب فإنهم لم يعيّنوا حرفاً واحداً لكل صوت معرب وإنما جعلوا له أكثر من صوت ومن دون أن يضعوا لنا قاعدة واضحة نسترشد بها في عملنا الحاضر في التعريب.

وإن عدم تحديد الصوت المقابل للأعجمي بدقة لم يقتصر على تعريب المفردات الفارسية وإنما يشمل كل اللغات التي عربت فيها مفردات تحوي حروفا غريبة عن اللسان العربي. ولعل من الأمثلة المناسبة في ذلك ما حدث في الألفاظ اليونانية، فالحرف "(chi) اليوناني الذي يلفظه المعاصرون كالخاء أو بما يشبه الشين على حسب موقعه

يتحول في لغتنا إلى شين (ابرشية، برطشيل، شدياق)، أوخاء (أخيون، خلقين، ملوخية)، أو هاء (درهم)، أو كاف (إسكيم، كندر)... أو قاف (انقليس، قلمون). أما حرف (kapp) الملفوظ كالكاف فكثيراً ما يصير قافاً كما نرى في فندق، قانون، قروميد، قلقاس...قنديل، أسقف"(11).

2 – إبدال غير مطرد وهو الحاصل في الحروف التي لها نظير في العربية فقد يبدل الحرف في كلمة ولايغير في أخرى، وقد تحدث عنه السيوطي بقوله "وأما ما لا يطرد فيه الإبدال فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم إسماعيل أبدلوا السين من الشين والعين من الهمزة وأصله اشمائيل... وذكر أبوحاتم أن الحاء في الحُب بدل من الخاء وأصله في الفارسية خب "(12).

وكذلك الإبدال الحاصل في حرفي الراء واللام وغيرهما بين العربية والأكدية مثل بصل العربية وبصرو الأكدية (13) إلى غير ذلك من الإبدال.

ومن الأدلة التي تؤكد عدم إطراد نقل الأصوات بين اللغات الأعجمية والعربية تلك الدراسة التي قام بها إبراهيم مراد المتضمنة معرفة التغيير الصوتي الحادث في الألفاظ الأعجمية ومقارنته في جهود ثلاثة علماء مغاربة. ولو أخذنا مثالا واحدا منها لعرفنا مدى الاختلاف الحاصل في نقل أصوات الحروف بينهم، فقد جمع المؤلف 45 كلمة ورد فيه حرف السين وأن مجموع ما ذكر فيها 51 مرة "وقد ورد بالتوالي 17 مرة عند ابن الجزار و 16 مرة عند الإدريسي و 18 مرة عند ابن البيطار. وقد نقله الثلاثة بالطرق التالية:

ا – ابن الجزار فقد نقله ثماني مرات كافاً أي بنسبة 47.06 % وست مرات قافاً أي بنسبة 35.29 % وثلاث مرات جيما أي بنسبة 17.65 %.

ب – الإدريسي فقد نقله أربع مرات سيناً أي بنسبة 25 % وأربع مرات قافاً أي بنسبة 25 % ومرتين جيماً أي بنسبة 12.50 % ومرتين خاءً أي بنسبة 12.50 % ومرتين شيناً أي بنسبة 12.50 % ومرتين كافاً أي بنسبة 12.50 %.

ج – ابن البيطار فقد نقله ثماني مرات قافاً أي بنسبة 44.44 % وثلاث مرات خاءً أي بنسبة 16.67 % وثلاث مرات فاءً أي بنسبة 16.17 % وثلاث مرات كافاً أي بنسبة 16.67%ومرة واحدة جيماً أي بنسبة 5.55 %"(14).

وتكفي قراءة سريعة لهذا المثال – على فرض دقته العلمية – لمعرفة مدى عدم إطراد نقل صوت السين من اللغات الأعجمية إلى العربية وعدم تحديد صوت واحد له. كما يلاحظ الاختلاف في نقل الصوت عند أحد العلماء فضلا عنه عند الآخرين. وهذا ما يثير سؤالاً ملحا وهو لماذا هذا الاختلاف في نقل الأصوات في المفردات الأعجمية عند تعريبها؟ ويضاف إليه سؤال آخر مؤداه ما سرّ عدم وضع صوت عربي واحد عند نقل الصوت الأعجمي الذي لايوجد له نظير في العربية؟.

وسوف نحاول أن نجيب عن هذين السؤالين فيما يأتي:

أسباب اختلاف إبدال الحروف في الألفاظ المعربة:

هناك أسباب عديدة وراء ما يلاحظ من اختلاف في نقل أصوات الكلمات الأعجمية عند تعريبها ويمكن إجمالها في نقاط رئيسية هي طبيعة الصوت المعرب وصفاته ومكان خروجه ودلالة الألفاظ المعربة وزمن استخدامها، وطريقة النقل من اللغات مباشرة أو بالواسطة وأخيراً

كيفية نقل الأصوات سواء أكانت ملفوظة أم مكتوبة.

وسنحاول فيما يأتي إضاءة هذه النقاط بشيء من التفصيل والتدليل :

1 - إن طبيعة الصوت الأعجمي قد تساعد على تعريبه بأكثر من حرف وبخاصة في الأصوات التي لايوجد لها نظير في العربية؛ لأنها تخرج من منطقة لايخرج منها صوت عربي؛ فاضطر المعرّب له إلى أن يفتش عن أقرب الأصوات إليه من حيث المخرج والصفات.

وقد فطن اللغويون العرب إلى أهمية القرب المخرجي في التعريب وجعلوه العامل الوحيد عند اختيار الصوت العربي الذي يبدل من الصوت الأعجمي (15). لكنهم لم يفطنوا إلى دور صفات الحروف عند الإبدال. ولو حاولنا مقارنة صفات الحروف التي حدث الإبدال فيها لعرفنا مدى دورها في هذه العملية الصوتية. فالصوت الذي بين " الجيم والكاف ربما جعلوه جيما وربما جعلوه كافاً وربما جعلوه قافاً لقرب الكاف من القاف"(16).

فصوت (الكَاف) يخرج من أقصى الحنك وبذلك يكون بين مخرجي (الكاف) و(القاف) فأدنى منه قليلاً مخرج الكاف وأبعد منه قليلاً مخرج القاف فالعربي الذي عرب كلمة (كَربج) مثلاً، إن اختار بدل (الكَاف) حرفا أبعد منه مخرجا كان حرف القاف فعربها (قربج) وإن كان أدنى منه مخرجا كان الكاف فعربها (كَربج).

أما إذا نظر المعرّب إلى صفات الحرف الأعجمي واختار مايقاربه في ذلك - مع ملاحظة عدم البعد المخرجي - أبدله بصوت الجيم. لأنه يتفق مع (الكَاف) في صفتي الشدة (الإنفجار) والجهر في حين أن صوتي القاف والكاف يختلفان عن (الكَاف) في صفة الهمس.

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أن العرب أبدلوا من هذا الصوت صوت الجيم (التي ينطق بها سكان القاهرة وبعض المدن العربية) أي (G)(17) ولاأراهم على حق في ذلك وذلك لأن صوت (G) يماثل تماماً صوت (الكَاف) والإبدال يقتضي اختيار صوت مخالف. ولما كان العرب القدماء قد ذكروا أنهم أبدلوه إلى صوت الجيم فهذا يعني أنهم أبدلوه إلى صوت مغاير له فلا يكون إلا الجيم القرشية التي ينطق بها سكان العراق وبعض الدول العربية الأخرى لا الجيم القاهرية.

ولو لاحظنا عملية الإبدال في أصوات أخرى كالإبدال الذي أحدثه العرب في صوت (الپاء P) الأعجمي إلى (الباء) مرة و(الفاء) أخرى فالأصوات الثلاثة تخرج من منطقة الشفة وأنها تتفق في صفة وتختلف في أخرى (فالپاء) تتفق مع (الباء) في صفة الشدة (الانفجار) وتختلف عنها في الجهر والهمس لأن (الپاء) مهموس و(الباء) مجهور ويتفق حرف الباء مع الفاء في صفة الهمس ويختلف عنه في صفة أخرى (فالپاء) شديد (انفجاري) والفاء رخو (احتكاكي).

2 - إن الأصوات الأعجمية التي عربها العرب لم تكن مأخوذة من لغة واحدة فهناك أصوات متشابهة في أكثر من لغة أعجمية عُرِّبت بعض أصواتها من ذلك "أن العرب أبدلت الخاء من الكاف في الألفاظ الفارسية برزخ كامخ فرسخ ولكنها أبدلت القاف من الكاف في الألفاظ اليونانية بطريق قلم إقليم وهذا يعني أن الأذن العربية لحظت فرقاً واضحاً بين الكاف الفارسية والكاف اليونانية"(18) بل لعل الحرف لم يكن كافاً وإنما كان شبيهاً به في كل من اللغتين بدليل أن العرب لم تبدله إلى

الكاف وإنما أبدلته إلى حرف آخر فوجد المعرّب للألفاظ الفارسية أن هذا الصوت أقرب إلى الخاء فأبدله إليه، ووجد المعرّب للكلمات اليونانية أنه أقرب إلى القاف فأبدله إليه.

3 – الخطأ في السمع أو النطق: عندما يسمع العربي كلمة أعجمية أخطأ المتكلم في نطقها فإنه سوف يعربها بالصورة التي سمعها به وإن نطقت بشكل صحيح في لغتها لكن السامع قد أخطأ في سمعه أو في نطقه لها فإنها سوف تُعرَّب بشكل مختلف عما هي عليه في لغتها الأصلية – إن شاع النطق غير الصائب لها – . ولعل هذا العامل كان وراء تغيير العرب القدماء لأصوات حروف كلمة (كفجليز) الفارسية إلى (قفشليل)(19).

ومما يرجح ما قلناه أن الاختلاف بين الكلمتين قد حدث في ثلاثة حروف منها و لم يكن في أحدها حتى يمكن أن نجد له عاملاً آخر،كما أن طول الكلمة يساعد على وقوع الخطأ في النطق فيها أو في السمع. وقد فطن اللغويون إلى دور الخطأ في السمع أو النطق فقد قال أبو عمر الجرمي "ربما خلطت العرب في الأعجمي إذ نقلته إلى لغتها "(20).

4 – التطور اللغوي الذي حدث في إحدى اللغتين دون الأخرى قد يؤدي إلى عدم إطراد إبدال الأصوات فإذا أدت عوامل معينة إلى حدوث تغيير صوتي في الكلمة المعربة بعد دخولها العربية وبقيت في لغتها الأصلية من دون تغيير فيحدث من جراء ذلك اختلاف بين أصوات الكلمتين الأعجمية والمعربة. ويحدث الشيء نفسه لو حافظت اللغة العربية على صوت الكلمة المعربة وحدث التغيير في صوتها في لغتها الأصلية.

5 – اتساع زمن التعريب يؤدي أحيانا إلى حدوث تطور في الأصوات سواء أكان داخل اللغة العربية أم في اللغة الأعجمية، فقد عربت مفردات قبل تكوّن اللغة العربية المشتركة كما عربت أخرى في صدر الإسلام وعربت ثالثة في الوقت الحاضر، وإذا كانت هذه الكلمات حاوية على صوت أعجمي واحد أو أكثر فإن تعريبه في الأزمنة المختلفة قد يؤدي به إلى الاختلاف في النطق لأن هذه المدة الطويلة من الزمن كافية لحدوث التطور الصوتي في بعض الأصوات في كل لغات العالم وبخاصة إذا آزر ذلك عوامل خاصة باللغة أو بالأصوات.

6 – اختلاف المعرِّبين للألفاظ الأعجمية، فالعربي الذي عرّب مفردات فارسية هو غيره الذي عرّب مفردات يونانية مثلاً على أغلب الظن، وذلك لبعد المسافة بين مكان وجود اللغتين، كما أن احتكاك كل منها باللغات الأعجمية المجاورة له قد يؤدي إلى تطور نطق بعض الأصوات عنده. ولعل خير دليل على ذلك اختلاف نطق القبائل العربية القديمة لبعض الأصوات وما يشاهد من اختلافات في نطق الأصوات حاليا في الأقطار العربية المختلفة.

7 – عدم وجود أسس علمية محددة يراعيها المعرِّبون للألفاظ الأعجمية مما ترك المجال واسعا أمام الاجتهاد الشخصي (21) في ذلك وبخاصة إذا ما عرفنا أن التعريب قد حدث من زمن بعيد، وقبل بدايات الدرس اللغوي بكثير فضلاً عن وقت نضجه ورقيه.

يضاف إلى ذلك اختلاف المستوى الثقافي والعلمي للمعربين فقد عرّب العلماء قسماً من المفردات الأعجمية أمثال ألفاظ العلوم والحضارة ومصطلحاتها كما عرّب